من إشكالات التفسير بين الملائكة وآدم وإبليس

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

أورد القرآن الكريم خلاصة وافية موجزة لما جرى بين الملائكة وآدم وإبليس وتمرده على أوامر الله. وعرض القرآن لقطات من هذه القصة في عدة سور، وكانت اللقطة المعروضة منها متناسقة مع السورة المعروضة فيها.

ومن السور التي ذكرت طرفاً من تلك القصة: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، وطه، وص.

وقد أثيرت إشكالات حول معاني الآيات التي عرضت تلك القصة، واختلف المفسرون في تفسيرها، وتنوعت إجاباتهم للأسئلة التي وردت عليها. وذهب بعض المفسرين مذهباً بعيداً في التفسير، ولجأ إلى الاسرائيليات والأساطير، والأخبار غير الثابتة، والروايات والأقوال الباطلة، والقصص المزعومة المفترضة. وفسر آيات القرآن بهذا «الكمّ» الكبير أو «الركام» الثقيل.

وسوف أذكر أهم الأسئلة والاشكالات التي ترد على القصة، وأستعين الله في ذكر الاجابة على الاسئلة، وحل تلك الاشكالات. ولا أدعي التفرد في هذا، بل أقرر أن معظم ما أورده هو مما التقطته من درر وجواهر علمائنا الأعلام ومفسرينا الأجلاء، فلا أبني الا من حصياتهم، ولا آخذ الا من كنوزهم!

١ ــ هل خلق الجن قبل آدم؟

قد يلتبس الأمر على بعض المسلمين فيتساءل: أيهما خلق أولا الجن أم الانس؟ آدم أو إبليس؟

إن القرآن صريح في أن الجن خلقهم الله قبل الانس، حيث قال: «ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأمسنون، والجان خلقناه من قبل من نار السموم» (الحجر: ٢٦ــ٢٧).

فكلمة «من قبل» تدل على أن الجن خلقوا قبل آدم.

أما الملائكة فهم مخلوقون قبل آدم أيضا، كما هو صريح القرآن، قال تعالى: «واذ قال ربك

للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة: ٣٠)، وقال تعالى: «واذ قال ربك للملائكة، إني خالق بشراً من طين، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين» (ص: ٧١ــ٧٢).

إذن الملائكة خلقوا قبل آدم، والجن خلقوا قبل آدم، وإبليس خلق قبل آدم.

٢ ــ مم خلقت الأجناس الثلاثة؟

العقلاء في هذا الكون ثلاثة أجناس: الملائكة، والجن، والإنس، أما الملائكة فقد خلقهم الله من النور، والجن خلقهم الله من النار، وآدم ــ أبو البشر ــ خلقه الله من الطين.

وقد صرح القرآن بمادة خلق الجن، فقال: «وخلق الجان من مارج من نار» (الرحمن: ١٥)، وقال: «والجان خلقناه من قبل من نار السموم» (الحجر: ٢٧) والمارج هو المختلط ــ لأن المرج هو الخلط، والمروج هو الاختلاط كما يقول الراغب في المفردات (٤٦٥) ــ فمارج النار هو لهيب النار المختلط بالدخان، وهو أعلى جزء من النار، الذي اختلط به الدخان المنبعث منها.

ونار السموم التى خلق منها الجن هي النار الحارة شديدة الحرارة (المفردات: ٢٤١).

وقد يظن بعض الناس أن الكافرين من الجن الذين سيعذبهم الله بالنار، لن تؤثر فيهم النار ولن تضرهم، لأنهم خلقوا من النار، فكيف تضرهم المادة التي خلقوا منها؟

وهذا ظن خطأ، فإنهم سيعذبون في النار، وسوف تضرهم وتؤذيهم و يتألمون فيها، فهاهو الانسان، إنه مخلوق من التراب والطين، ومع ذلك ألا يضره التراب والطين؟ فلو صنعنا من الطين لبنة يابسة، وضربنا بها إنسانا فإنها ستؤذيه وتدميه، وربما تقضي عليه وتقتله!

أما الدليل على أن الملائكة خلقوا من النور، فهو الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الذي رواه الامام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ــ «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» مسلم: ٥٣ كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة حديث رقم: (٢٩٩٦).

٣ ــ التوفيق بين آيات خلق آدم :

وردت عدة آيات عن المادة التي خلق منها آدم أبو البشر، و يبدو في دلالة هذه الآيات شيء من «التعارض الموهوم» حيث تخبر الآية عن مادة خلقه، ثم تخبر آية أخرى عن مادة أخرى غيرها، وهكذا.

وقد يوجه بعضهم شبهات حول القرآن لهذا السبب، و يثير على تلك الآيات إشكالات

واعتراضات، و يتهم القرآن بالتعارض والتناقض والاضطراب.

وسوف نورد هذه الآيات حسب ترتيب مراحل خلق آدم، لأن هذا الترتيب المرحلي يز يل ذلك التعارض الموهوم.

أ ــ خلق آدم من تراب، قال تعالى: «ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» (الروم: ٢٠).

ب ــ خلق آدم من طين، قال تعالى: «هو الذي خلقكم من طين، ثم قضى أجلا، وأجل مسمى عنده» (الأنعام: ٢).

جـ ــ خلق آدم من طين لازب، قال تعالى: «أهم أشد خلقا أم من خلقنا؟ إنا خلقناهم من طين لازب» (الصافات: ١١).

واللازب هو : الثابت الشديد الثبوت، (المفردات: ٤٤٩) أي أن هذا الطين أصبح ثابتا قو يا متماسكاً جامداً.

د ــ خلق آدم من حمأمسنون، قال تعالى: «ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأمسنون» (الحجر: ٢٦).

والحمأ هو الطين الأسود المنتن، (المفردات: ١٣٣).

والمسنون هو المتغير، لأن الله قال للصالح الذي مر على قر ية وهي خاو ية على عروشها: «فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه» (البقرة: ٢٥٩) أي لم يتغير، (المفردات: ٢٤٥).

فالحمأ المسنون: هو الطين الأسود، حيث يتغير و ينتن بعد عجنه بالماء.

هـ ــ خلق آدم من صلصال كالفخار، قال تعالى: «خلق الانسان من صلصال كالفخار» (الرحمن: ١٤).

والصلصال هو تردد الصوت من الشيء اليابس، ومنه قيل: صلَّ المسمار، عندما يخرج منه صوت إذا دق في الجدار، وسمي الطين الجاف صلصالا، (المفردات: ٢٨٤).

والفخار معروف.

ومعنى صلصال كالفخار أن طينة آدم تركت حتى أصبحت يابسة، وطالما هي جوفاء، لذلك كانت تصوّت، أي يخرج منها صوت كالصلصلة.

وهنا لفتة لطيفة عن الفخار والفخر وارتباط هذا التفاخر والتباهي بالانسان وطبيعته، نستعيرها من الامام الراغب في المفردات.

قال: الفخار: الجرار، وذلك لصوته اذا نقر، كأنما تصور بصورة من يكثر التفاخر، فلهذا سمي فخاراً (المفردات: ٣٧٤).

وكون الانسان الأول ــ آدم عليه السلام ــ صلصالا كالفخار قبل نفخ الروح فيه، يوحي بميل الانسان غير الملتزم بالايمان والاسلام الى التفاخر والتكبر والتباهي والخيلاء.

وتشبيه هذا المتفاخر المتكبر بالفخار، الفارغ من الداخل، يوحي بأن كل متكبر مفاخر فارغ من الداخل، فارغ من الايمان العميق والصفات الحميدة، والاخلاق الفاضلة، والأعمال المجيدة، فيريد أن يخفي هذا الفراغ عن طريق الادعاء والتفاخر، وكأنه بهذا الانتفاش الخادع والوهم المريض، يملأ ذلك الفراغ في قلبه وروحه وكيانه وإنسانيته، الذي يشبه فراغ الفخار الذي يملؤه بالصلصلة والصوت.

والآن ــ و بعد إيراد الآيات ــ يسهل علينا التوفيق بين دلالاتها، وإزالة التعارض الموهوم بينها.

إن كل آية منها، تشير الى مرحلة من مراحل خلق آدم ــ عليه السلام ــ.

فهو أولا خلق من التراب.

ثم خلط التراب مع الماء فصار طيناً.

ثم ترك الطين حتى صار طيناً لازباً.

ثم تحول هذا الطين اللازب إلى حمأمسنون.

ثم أصبح الحمأ المسنون بعد ماجف و يبس صلصالا كالفخار.

٤ ــ هل إبليس من الجن أو من الملائكة؟

وهذه قضية أخرى، أثيرت حول قصة آدم وإبليس، هل إبليس من الجن أم من الملائكة؟

ذهب بعض السابقين الى أنه من الملائكة، ولذلك شمله الأمر الرباني لهم بالسجود لآدم، قالوا: فلو لم يكن من الملائكة لما شمله الأمر.

لكن هؤلاء واجههم مشكلة أكبر، إذ كيف يوفقون بين معصية إبليس لربه وتمرده على أمره، و بين كون الملائكة لايعصون الله؟.

ورجح جمهور المفسرين أن إبليس كان من الجن وليس من الملائكة.

والقول الصحيح والمعتمد هو أن إبليس كان من الجن وليس من الملائكة، وذلك للأدلة التالية:

أ ــ إن القرآن قد صرح بأنه من الجن، وذلك في قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا، إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه»(الكهف: ٥٠).

إبليس كان من الجن، وفسق عن أمر ربه وتمرد عليه.

وهذا نص قرآني صريح، لايحتمل التأويل، ولا أدري كيف أجاز بعض المفسرين لأنفسهم الاختلاف في أصل إبليس رغم تصريح القرآن بذلك؟ ولا أدري كيف يقول آخرون خلاف مايقول القرآن؟

القرآن يقرر أن إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، و يذهب بعضهم الى أن إبليس كان من الملائكة!!

علينا أن نأخذ عن القرآن مايقرره، وأن نقول بما قال به، وأن نستمد منه أفكارنا وتصوراتنا، ولايجوز أن نتخلى عن مقررات القرآن وحقائقه، ودلالاته وايحاءاته.

ب ــ الدليل الثاني: ما أجاب به إبليس رب العالمين عن سبب عدم سجوده لآدم، حيث قرر أنه خلق من نار، «قال: أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين» (الأعراف: ١٢).

وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الملائكة خلقوا من نور، وأن الجن خلقوا من نار، وطالما أن إبليس خلق من نار، فهو من الجن.

٥ ــ لماذا إبليس ليس من الملائكة؟

إبليس ليس من الملائكة لمايلي:

١ ــ انه خلق من النار، مع أن الملائكة مخلوقون من النور.

٢ ــ انه عصى الله، وخالف أمره، فلو كان من الملائكة لسجد معهم، ولنفذ أمر الله سبحانه.

ان القرآن صريح في عصمة الملائكة، وفي طاعتهم لله، وتنفيذهم لأوامره، وعبادته وذكره، وأنهم لايملون من العبادة والطاعة، ولايفترون ولايكسلون،

قال تعالى: «ومن عنده لايستكبرون عن عبادته، ولايستحسرون، يسبحون الليل والنهار لايفترون» (الأنبياء: ١٩ــ٢٠).

وقال تعالى: «ياأيها الذين آمنوا، قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لايعصون الله ما أمرهم، و يفعلون مايؤمرون» (التحريم: ٦).

إن اعتبار إبليس من الملائكة يتعارض مع هذه الآيات الصريحة في عصمة الملائكة.

وقد أشار القرآن في موضع آخر الى سجود الملائكة جميعهم، قال تعالى: «فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين» (الحجر: ٣٠ــ٣١).

وألحظ من الآيات تأكيد القرآن على سجود كل الملائكة، حيث أورد لفظتين مؤكدتين، وهما «كلهم» و«أجمعون»، لقد سجد الملائكة كلهم، سجدوا جميعهم، سجدوا أجمعون.

وقد يثور هنا تساؤل آخر: بما أن إبليس كان من الجن، فلماذا شمله الأمر بالسجود؟ ومنذ متى كان مع الملائكة؟ وماذا كان يعمل عندهم و بينهم؟.

لانجد في القرآن ولا في الحديث الصحيح إجابة على ذلك، ولذلك لانستطيع أن نجيب بجواب يقيني قاطع، ولايجوز أن نأخذ في ذلك الجواب عن الاسرائيليات والخرافات والأقاو يل غير الصحيحة عن أهل الكتاب ــ كما فعل بعض السابقين من المفسر ين ــ.

لانعرف متى كان مع الملائكة، ولاندري عن مهمته عندهم وعمله بينهم، أما كونه مأموراً بالسجود، فهذا ماصرح به القرآن، قال تعالى: «قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك؟» (الأعراف: ١٢).

هل توجه له أمر خاص؟ هذا ممكن، ولم يخبر عنه القرآن، ربما يكون ذلك استهانة به بعد ماتمرد على أمر الله.

هل شمله الأمر العام للملائكة، باعتباره مقيماً معهم، هذا كذلك ممكن، لأن الانسان إذا أقام مع قوم، فانه تنطبق عليه قوانينهم وأنظمتهم، وان لم يكن واحداً منهم.

٦ ــ معنى الاستثناء!

لما أخبر القرآن عن سجود الملائكة لآدم، استثنى إبليس، فقال: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافر ين» (البقرة: ٣٤).

وهذا الاستثناء أوقع بعضهم في إشكال، فذهبوا الى أنه من الملائكة، لأن القرآن أخبر عن سجودهم واستثنى إبليس منهم.

وحتى نجيب على هذا التساؤل، ونحل هذا الأشكال، نشير بهذه الاشارة النحو ية: ذهب علماء اللغة العر بية الى أن الاستثناء نوعان:

أ ــ استثناء متصل: وهو أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، كأن نقول: نجح الطلاب الا عليا، فعلي طالب من جنس الطلاب، لكنه لم ينجح معهم.

ب ــ استثناء منفصل: وهو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كأن نقول: قام القوم الا حماراً، فالقوم جميعاً قاموا، ولكن الحمار لم يقم، وهو من غير جنس القوم، (انظر النحو الوافي لعباس حسن ٢:٣١٨).

في ضوء هذا البيان، يتضح لنا أن استثناء إبليس من الملائكة، هو من النوع الثاني، فهو منفصل أو منقطع، وإبليس ليس من جنس الملائكة.

٧ ــ معنى سجودهم لآدم وكيفيته:

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، فنفذوا الأمر وسجدوا.

فكيف كان سجودهم؟ بعض المفسر ين اعتبره سجوداً معنو ياً، بمعنى الاحترام والتكريم

لآدم والانحناء أمامه، ونفوا أن يكون سجوداً حسياً حقيقياً. وهذا الرأي غير معتمد لأنه يحمل اللفظ على المجاز، و يصرفه عن الحقيقة، ولأن القرآن يشير الى ضده.

القرآن يشير الى أن السجود كان حسياً حقيقياً، قال تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأمسنون، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون» (الحجر ٢٨ـ٣٠).

قعوا : فعل أمر من الوقوع، ومعنى قعوا له ساجدين، اسجدوا على الأرض، بين يدي آدم عليه السلام.

وسجود الملائكة لآدم ليس سجود عبادة، لأن العبادة لا تكون الا لله، وسجود العبادة لايكون الا لله، فاذا جعله صاحبه لغير الله فقد كفر بالله.

كان سجود الملائكة لآدم سجود تحية وتكريم، فهو في ظاهرة سجود حسي، حيث وقعوا على الأرض، وخروا ساجدين، لكنه في معناه كان تحية وتكريماً لآدم عليه السلام، كما أنهم كانوا منفذين أمر الله بالسجود مطيعين له.

كان سجودهم لآدم شبيها بتوجه المسلم للكعبة، واستقبال القبلة في الصلاة، فهو لايصلي للكعبة، بل يصلي لله، و ينفذ أمره في التوجه للكعبة قبلة له في صلاته.

من الهدي النبوي الشريف

● عن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل افضل؟ فقال: «ايمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

● وعن انس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان: من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما، ومن احب عبدا لايحبه الا الله، ومن يكره ان يعود في الكفر بعد اذ انقذه الله كما يكره ان يلقى في النار».

● وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أريت النار، فاذا اكثر اهلها النساء يكفرن»، قيل: ايكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، و يكفرن الاحسان، لو احسنت الى احداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت: مارأيت منك خيرا قط».